نيقوس كزانزاكيس في حياته وروايته

بقلم نقولا يوسف

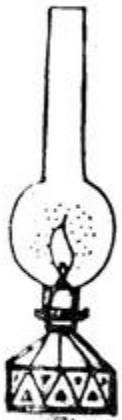

ما زال الأديب اليونانى الكبير ــ « نيقوس كزانزاكيس » محتفظا بمكانته على راس القائمة التى تضم كتاب القصة الحديثة اليونانية ، المنتقلة الى الميادين العالمية .. وقد يليه هنا من مواطنيه القصاص : « ايليا ڤينيزيس » او زميله : « ميريڤيلس » .. وقد يضارعه فى العبقرية الشعرية : « سيفيريس » ــ الفائز بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٦٣ ــ وكان كزانزاكيس مرشحا لهذه الجائزة قبيل وفاته عام ١٩٥٧ .

وكانت حياة كزانزاكيس ، ملحمة تمثل الصراع فى مختلف اشكاله ــ صراعا بين روحه وجسده ، وصراعا بين آرائه المتحررة وبين الآراء المحافظة ، وبين مثله واحلامه وبين الواقع وسلطانه .. وكان امر ما فيها خاتمتها ــ فقد عاش فقيرا جواب آفاق ، فما ان مات حتى اقبل القراء على قصصه فترجمت الى شتى اللغات ، وانقلب الأعداء القادحين الى معجبين مادحين .. وأخرجت هوليود الى الشاشة روايتيه : « الحرية أو الموت » و « زورياس » .. وانهال المال على أرملته التى شاركته الغربة والافلاس ــ فدارت على الملاجىء والمعاهد تهبها العطايا فى ذكراه ..

ولا شك أن روح الكفاح الذى سيطر على حياته وقصصه واشعاره ، كان وليد تلك البيئة الجبلية المناضلة ، وهو من ولد عام ١٨٨٥ بجزيرة كريت (اقريطش) كبرى الجزر اليونانية بالبحر المتوسط ــ وبها امضى صباه ومطلع شبابه . وظل وفيا لها طيلة حياته ، وزاده اغترابه المديد عنها حنينا وشوقا اليها .. وكانت صورها وذكرياتها ، وكفاحها وثوراتها ، مصادر الهاماته فى شعره ورواياته ــ حتى نقل اليها ليدفن فى ثراها بعد وفاته ..

فلطالما كانت هذه الجزيرة هدفا لغزوات الفاتحين والمستعمرين ــ من رومان وبنادقة وترك فالمان فى الحرب العالمية الأخيرة .. وكان قصاصنا قد شهد فى حداثته خواتيم الصراع بين اهله ومواطنيه ،وبين الترك الغزاة ــ بعد ان دام نحو ثلاثة قرون ــ عادت بعدها الجزيرة عام ١٩١١ الى أمها يونان ، كما كانت فى اقديم الزمان .

ولا عجب اذا كان المسرح الذى تمثل عليه أحداث قصتيه الكبيرتين : « الكسيس زورياس » و « القبطان ميخاليس ــ الحرية او الموت » ، هو تلك الجزيرة المناضلة

من اجل حريتها .. وصحيح انه يحب السلام وينادى بالاخاء ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يحب الاستعباد والاعتداء ـ فصور فى هاتين القصتين الصراع المرير بين الحرية والحياة وبين العبودية والموت .. وفى مؤلفات أخرى يبدو الصراع فى صور معنوية ـ كالصراع بين الروح والجسد ، وبين المثل العليا والواقع السفلى ، وبين الراى المتحرر المنطلق ، والآخر الرجعى المقيد ـ كما نرى فى قصتيه الشهيرتين : « المسيح يعاد صلبه » و « التجربة الأخيرة » ، وفى : « مسكين الله ـ فرنسيس الأسيسى » ، وفى ملحمة « الأوديسية » (العصرية) ، ومسرحية « جوليان الكافر » وفى كتابه « خطاب الى الجريكو » .. ثم ما يسود قصصه من صراع بين حق الفن وحق النص ..

ثم انك اذا استعرضت مؤلفاته الستين ـ ومنها عشر روايات ، وثمانى عشرة تمثيلية ، وستة كتب فى الرحلات ، وثلاثة فى الفلسفات ، وديوان شعرى ، وملحمة « الأوديسية » ، وكتب النقد والمقالات ، وكتب للأطفال ، غير رسائله الخاصة ، ومترجماته الكبرى ، أخذتك تلك الشاعرية الرقيقة ، وفنية التصوير الدقيقة ، والانسانية دائما والصوفية أحيانا ـ مما يمتاز به هذا النتاج الأدبى الموفور حيث تمتزج القصة بالشعر ، والرحلة بالتصوير ، والدين بالفلسفة ـ وعادت بك الذاكرة ولا شك الى ما قرأته او شاهدته من صور تلك الجزيرة فى ماضيها وحاضرها ـ وهى الصور التى نشأ بينها هذا الفنان فهيمنت على مخيلته ولازمته بقية حياته .. فثمت الجبال الصخرية الشامخة ، والتلال المكسوة بالصنوبر يعلوها جبل « مداروس » المطل على مدينة « قنديه » .. والبقاع الجرداء والمراعى الخضراء .. واشجار الفاكهة والكروم واحراج الزيتون .. والخلجان الكثيرة المتعرجة السواحل ، وكانت منذ قديم مرافىء للسفن المتاجرة مع مصر ويونان والشام .. ثم تلك الأطلال المبعثرة فى انحاء الجزيرة تتحدث عن حضارة عريقة وشعب عرف الكتابة بالرموز ، ونبغ فى فنون النحت والتصوير والمعمار .. وعن مدينة « كنوسوس » التى جعلها « مينوس » مقرا لملكه وقصوره قبل حرب تروادة ـ الى أن اندمجت كريت عام ١٥٠٠ قبل الميلاد فى اليونان وحضارتها ولغتها .. وحتى دخلت فى حوزة الرومان عام ٦٨ ق . م .

وفى هذا الجو المسحور ، ولدت من الأساطير والحكايات ما يثير خيال الشاعر القصاص .. فهذه اسطورة تقول بأن « زيوس » كبير الآلهة شب فى كريت قبل ان يتربع على عرش الأولمب .. وانه هنا ظهرت المدن المئة التى تغنى بها هوميروس .. وان فى مدينة « كنوسوس » أيام الملك « مينوس » شيد الفنان « ديد الوس » قصر « اللابرنت » ليحبس فى متاهته الوحش « مينوتور » فلما غضب عليه الملك صنع لنفسه ولابنه « ايكاروس » اجنحة تلتصق بالشمع فى الجسد ، وطارا بها عبر البحر .. وان شاعر كريت ونبيها « أبيمينيدس » ـ من القرن السادس قبل

الميلاد ـ أرسله أبوه وهو صبي ليبحث عن خروف ضال فالجاه التعب الى كهف نام فيه سبعا وخمسين سنة ولما استيقظ وعاد الى بلده وجد أخاه الأصغر شيخا .. وانه كان يوبخ أهل وطنه حين مالوا الى الكذب والجشع ، مما استشهد به بولس في رسالته الى « قيطس » في الانجيل حين أرسله ليبشر كريت بالدين الجديد ..

* * *

وسط هذه الصور والذكريات ، ولد « نيقوس كزانزاكيس » ، وشب وتلقى تعليمه الأول . قبل أن ينتقل الى أثينا عام ١٩١٠ ليدرس القانون في جامعتها ، ويتعرف الى أوساطها الفنية والادبية ، ويتقن بعض اللغات الأوربية ، ويكتب في الصحف ويراسلها .. وينشر قصته « البناء المعلم » عام ١٩١٠ وكان قد سبقتها قصته : « حية وزنبقة » عام ١٩٠٦ . ويقرأ نتشه ويتأثر بتعاليمه عن ارادة القوة والسبرمان ، ويترجم الى اليونانية كتابه « هكذا تكلم زرادشت » ويكتب عنه المقالات .. كما يدرس « جوته » ويترجم روايته « فاوست » ، ويقرأ دانتي ويترجم كوميديته السماوية .. وينهل من الأدب الاغريقي وفلسفات اليونان وبخاصة اشعار هوميروس ، وينظم مثله ملحمة عصرية سماها « الأوديسية » في أكثر من ثلاثين الف بيت شعري .. وتصطدم آراؤه مع عقائد المحافظين ..

وكان قد تعرف الى الكاتبة اليونانية « غلاتيا كزانزاكيس » وكانت تنشر القصص ، وتهتم بالطفولة والمسائل النسوية ، وتزوجا ـ ولكنهما لم يتفقا في الرأي والعقيدة ، مما أدى الى افتراقهما ، ولكنها ظلت الى آخر حياتها تتلقب باسمه وتضعه على مؤلفاتها ـ ومنها « الطيور الجريحة » ـ ١٩٢٥ و « نساء ورجال » ١٩٣٥ ...

وفي مايو ١٩٢٤ عرف كزنزاكيس في كريت ، شريكة حياته : « هيلين » وتزوجها وكان قد اشرف على الأربعين وكانت في التاسعة والعشرين ـ فعاشت معه في وفاء وصداقة بقية حياته ، ولم تزل تجمع آثاره وتدير اعماله بعد وفاته .. وارتحلت معه عقب زواجهما في رحلتهما الأولى خارج الوطن ، الى فلسطين عام ١٩٢٤ ومنها ذهبا الى روسيا ، والى الهند والصين واليابان ..

وكان كزانزاكيس رحالة يجوب الآفاق ، وزودته أسفاره الطويلة المتعددة في اقطار الشرق والغرب بالخبرة الواسعة ، وبمعرفة الشعوب ، وملأت قلبه بحب الانسانية قاطبة ، ومحت في نفسه التعصبات كافة ، ونقلته من النتشوية التي اعتنقها في الشباب ، الى الرحمة والايثار والاخاء العام ـ وقد زار فرنسا وايطاليا ، واسبانيا وانجلترة وروسيا ، ومصر وفلسطين ، والهند واليابان والصين، وطاف ببعض الأقاليم الافريقية .. كما تنقل بين اليونان وكريت وجزر بحر ايجه ـ واعتكف فترة بجزيرة « ايبتا » الصغيرة ليكتب وينظم .. ومات ببلدة « انتيب » على ساحل الرفييرا الفرنسية .. وكان يرسل الى الصحف مشاهداته في البلاد ، وينشر

الكتب فى ادب الرحلات .. فكتب عن برجسون وفلسفته يوم عرفه بباريس .. ونشر عام ١٩٢٧ كتابا بعنوان : « رحلات » ، وآخر عن رحلته بانجلترة طبع عام ١٩٤٥ ، وكتابا عن اليابان ظهر قبيل وفاته عام ١٩٥٧ ــ وطبع خمس مرات .. وله مؤلف عن رحلته بمصر وسيناء وافريقية وفلسطين ، وآخر عن الصين ..

وحدث عندما كان ببلاد اليونان عام ١٩٤٦ أن دعوه الى ميدان السياسة ، فراس المجلس الأعلى للحـــزب الاشتراكى ، وعين وزيرا للتعليم فى وزارة « باباندريو » الديمقراطية .. ولكنه ما لبث أن أحس بتيار السياسة والحزبية يجرفه بعيدا عن الفن الذى كرس له حياته ، فترك السياسة واحزابها ورحل عام ١٩٤٧ مع زوجته « هيلين » الى فرنسا ، ولم يعد الى بلاده منذ ذاك الحين ، وفى فرنسا اسندت اليـه « هيئة اليونسكو » الاشراف على ترجمة بعض المؤلفات ولكنه ما لبث ثانية ان هجر المناصب وتفرغ الى يوم وفاته الى وضع المؤلفات والقصص التى طار بها صيته وذاع اسمه فى انحاء الأرض ..

وكانت خاتمة المطاف فى بيت فقير ببلدة « انتيب » الصغيرة الهادئة على ساحل الرفييرا جنوبى فرنسا ، حيث أمضى الفترة الأخيرة من حياته حتى يوم وفاته من عام ١٩٥٧ شيخا فى الثانية والسبعين ، وحيث كان يكتب ويملى على زوجته كتاباته الأخـــيرة ..

ولكن كنزاكيس ما لبث أن ترك صومعته وقلمـه فى « انتيب » ، وودع بها الحياة كلها فى خريف ١٩٥٧ .. وخلف مخطوطاته ورسائله وذكرياته بين زوجته ــ الانسانة الوحيدة التى أحبته فى حياته وبعد موته ، وعاشت معه ثلاثا وثلاثين سنة كانت فيها موضع محبته واحترامه وثقته .. ونقلت جثمانه فى مسقط رأسه .. « كريت » ..

واما قصته « الحرية او الموت » واسمها الأصلى : «القبطان ميخاليس » وقـد قراها الكثيرون مترجمة الى عدد من اللغات ومنها ترجمة « جوتاثات جريفين » الى الانجليزية عام١٩٥٦، او رأوها على شاشة السينما ، فقد قابلها كبار النقاد فى اعجاب، وقال ناقد المانى : « انها قصة الانسان فى صراعه الأبدى من اجل حريته ، وكأنما كانت عناصرها محفورة فى الجرانيت او منقوشة على جدار كهف ، واذا كانت كل قصـة شطرا من الدنيا فهذه القصة دنيا بأسرها ! » .

وفى اسلوب قوى متدفق يصور كزنزاكيس كفاح تلك الشراذم من الفـــلاحين والصيادين والملاحين ، المسلحين بالأسلحة البدائيـة ، والثائرين فى وجـــه قوات الامبراطورية العثمانية ، ينازلونها فى معارك وحشية ، باذلين الجهد والأرواح .. يتخللها صور انسانية رقيقة ، وعرض لنفسيات الكثير من الشخصيات المختلفـــة الأشكال والأعمار والمذاهب والأجناس ــ من ملاحين ومدرسين ، وقسوس وفلاحين، واتراك ويونانيين ، ويهود ومسيحيين ــ وتمر بك الأسماء الكثيرة ــ التى تعيش معا

فى تلك الجزيرة .. وها هو الربان ميخاليس والعمة كاترينه ، ومصطفى بابا وامينه ، وديمتروس ورمضان ، وفوتيوس وسليمان ، ونورى بك وكوزماس ، واســـطفان والقبطان سفاكاس .. وكلهم احياء امامك يتحدثون ويرزقون ، والأحداث تمر بهم فى صورة عريضة واسعة هى صورة الدنيا بأسرها .. وفى النهـــاية يتساءل الربان ميخاليس ــ التى سميت القصة باسمه ــ وهو يسير الى المعركة الأخـيرة الميئوس منها ، والتى يعرف انه لن يكسبها ــ : اهى الحرية أو الموت ؟ ــ وكانت هى صيحة القتال لكل محارب ثم كانت هى صيحة « ميخاليس » حين يحدق به ويقتل ..

وكان كزانزاكيس ــ كما يقول ناقد آخر يفضل كتابة ذلك النوع من التاريخ الذى يصنعه الله والانسان والشيطان ، ويستحوذ على قارئه لأنه يسبغ على شخصياته ــ حتى فى لحظة الموت ــ انتفاضة الحياة ..

كذلك كانت قصته : « حياة الكسيس زرباس » أو « زوربا الأغريقى » ــ التى نشرت باليونانية عام ١٩٤٦ وترجمت أخيرا الى بعض اللغات ، ثم ظهرت على شاشة السينما ، رواية كريتية كبيرة ، تعرض فى شخصيتين رئيسيتين ، فلسفة الثقافة عند الرجل البسيط كما يفعل التاريخ عادة مع شخصياته .. وتصور الصراع بين عقليتى الرجل المفكر المثقف وبين العقل السطحى الذى يكتظ العالم بأصحابه ..

ويستوحى كزنزاكيس قصة السيد المسيح فى اطارها القديم المعروف ، روايته التى سماها « التجربة الأخيرة » ـ ويقصد بها التجربة التى حدثت للسيد المسيح حين التقى به الشيطان ، وعرض عليه امجاد العالم ومغانمه ليطيعه ، فرفضها جميعا ، وانتصرت روحه على مغريات الدنيا ـ غير ان كزنزاكيس ارخى العنان لخياله فى بعض الوقائع ، فاضاف وبدل وفسر والبس بعض الشخصيات التاريخية ادوارا جديدة ، وقال انها قصة انسان مكافح لا ترجمة لحياة ، وانه كان حتما عليه ان يكتبها هكذا . . وذكر فى المقدمة ان طبيعة المسيح الثنائية ـ اى طبيعتاه السماوية والبشرية ـ كانت له سرا مستغلقا ، فصورهما فى قصته صراعا بين الروح والجسد . . ومع ذلك فلم يسلم من غضب المحافظين من رجال الدين وغيرهم ، فشنوا عليه حملة شعواء واستعانوا بحكومة بلاده فسحبت ترشيحها له لجائزة نوبل ، واجل الترشيح حتى تهدأ العاصفة . ولكنه مات قبل ان يفوز بالجائزة ، وقبل ان يعود اكثر اعدائه الى فهمه وتكريمه . . وكان باب النقاش قد ظل مفتوحا حول قضية الصراع بين حق الفن وحق التاريخ ، ومدى حرية القصاص فى التصرف بالحوادث التاريخية ـ ولقد مارس اهل الفن منذ القديم من قصاصين وشعراء ومصورين ، هذه الحرية فى مبتكراتهم الفنية ـ والأمثلة لا تعد ولا تحصى ـ وتجاوز النقاد عن تصرفهم ما داموا يدورون فى فلك الواقع التاريخى الصحيح ، ولكن ما اثار هؤلاء النقاد على قصة كزنزاكيس هذه ، وعلى قصته : « المسيح يعاد صلبه » ، وكتابه عن القديس فرنسيس الأسيسى هو ما ابتكره خياله من وقائع لم ترد فى النصوص التى يرون التمسك بحرفيتها . .

فهو يبدأ قصته : « التجربة الأخيرة » بتصوير السيد المسيح وهو يتدرب فى دكان يوسف النجار ، وهناك يصنع صليبا من الخشب سوف يصلب عليه قائد « المقابيين » فيكرمه أهل القرية ، ولكنه لا يرضى عما صفح ويهجر الدكان والناس، ويخرج الى البرية ويلجأ الى دير ، ويعرف رئيس الدير قبل ان يموت ان هذا الشاب هو « المسيح المنتظر » . . وعندما يخرج ويعلم الجموع ان يحبوا بعضهم بعضا ، ويلتقى بيهوذا الحداد ، يرى يهوذا انه حالم وانه عندما قال المسيح : « انى سأخلصكم » كان يقصد الخلاص من الرومان ، ويجعل كزنزاكيس من يهوذا عضوا فى جماعة « الاخوان القديسين القتلة » ـ وكان مكلفا بقتل السيد المسيح لتسامحه مع الرومان . . ويكتب المؤلف عن عبارة « الهى الهى لماذا تركتنى » ؟ عشر صفحات ـ وفى النهاية يخرج القارىء من هذه القصة أكثر اعجابا بشخصية المسيح وكفاحه مما يخرج من المؤلفات المشهورة التى صوره فيها ـ كل بطريقته الفنية الخاصة : ملتون ، ويابينى ، ورينان، واميل لدفيج وجبران . .

ولا تصور رواية : « المسيح يعاد صلبه ـ او يصلب من جديد » حياة السيد المسيح ـ كما قد يفهم من عنوانها ، وان كان كزانزاكيس استعار مواقف بعض الشخصيات التى كانت تحوط بالمسيح فى حياته فى سياق قصته الحديثة . . وهى

قصة الصراع بين الخير والشر ، ومسرحها قرية يونانية فى عهد الاحتلال التركى . وبها كما فى غيرها قلوب طيبة واخرى خبيثة .. ويحتشد امامك هذا الخليط من الرجال والنساء على مختلف اشكالهم ومهنهم .. ويشاء اهل القرية ان يحتفلوا بعيد القيامة وذلك بتمثيلية تصور حياة المسيح ، يقوم بأدوارها عدد من اهل القرية .. واختاروا لكل دور ما يناسبه من الخلق.. فعهدوا بتمثيل دور المسيح الى الشاب الطيب القلب « مانوليو » ، ودور يهوذا الى رجل سيىء الطبع ، ودور مريم المجدلية الى حسناء مستهترة .. وهكذا على ان يعدوا امرهم الى يوم الحفل بعد بضعة اشهر .. ويزداد اثر هذه الأدوار على ممثليها ، فيصبح « مانوليو » الشاب التقى الصالح ، وتحبه احدى الفتيات ولكنه مشغول عن الحب فتتزوج راعيا للغنم ، وتقع الحسناء المستهترة فى حب « مانوليو » وتتبدل حياتها وتعيش فى التقوى .. واما حاكم القرية فرجل تركى قاس ، يقتل احد اعوانه غلام الحاكم المملوك ، ويتهم يونانى برىء بقتله فيشنقه ويمزق جسده وسط القرية .. واما قسيسها فرجل سمين جشع مقبل على الدنيا يعاونه آخر طيب صالح .. ويقبل على القرية جماعة من اللاجئين فيطردون الى الجبال ، ويذهب اليهم بائع فقير متجول فيوزع عليهم ما معه من امشاط وشرائط تسعد بها الفتيات المعدمات .. ويكون نصيب مانوليو الطيب ، التعذيب والقتل .. الى آخر تلك الصور المحتشدة والمتصارعة بين الخير والشر .. وهنا تبدو براعة كزنزاكيس فى التصوير والتحليل وقوة الأسلوب ، الى حد ان يقول عنها توماس مان : « ان هذه القصة ولا شك عمل قائم على نظام فنى عال ، شكلته يد رقيقة ثابتة ، وبنته فى قوة ديناميكية .. » ويذكر جون لهمان : « انها قصة العقل والحكمة والذكاء .. » فى حين يقول شفيتزر : « اننى منذ الشباب لم يترك مؤلف اثرا عميقا فى نفسى كما ترك كزانزاكيس » .

وعندما كان « كزنزاكيس » بايطاليا يطوف بمدنها وآثارها ، ذهب الى مدينة « اسيس » التى نشأ بها الراهب « القديس فرنسيس الأسيسى » والمتوفى عام ١٢٢٦ م .. وزار قبره ودرس سيرته وتعاليمه ، واخذته صورة هذا الشاعر الزاهد المعدم الذى احب الانسان والحيوان والطير والنبات ـ الى حد تسميتها : باخى الحصان واختى الشجرة .. ووضع كزانزاكيس عنه كتابا يجمع بين القصة الفنيةوالسيرة ، والرحلة والشعر والفلسفة ، وسماه « مسكين الله » .. وذكر فى مقدمته : « اذا كنت قد تخطيت الكثير من اعمال فرنسيس الأسيسى ، او بدلت فى اشياء اخرى ، او اضفت اعمالا لم يصنعها ، فانى لم افعل هذا عن جهل او قلة احترام، بل عن حاجة اصل بها بين حياته الحقيقية وحياته المجازية .. » .

وقد تخيره كزانزاكيس من بين صحف التاريخ الدموى ، وصوره لابسا رداء الفن ، واهدى كتابه الى « البرت سفيتزر » الذى اعتبره فرنسيس العصر ..

وكانت قصة فرنسيس قصة المحبة والرحمة والسلام ، فى حين كانت قصته

« الربان ميخاليس » قصة الحرية او الموت ـ الأولى كفاح الانسان من أجل السلام والمحبة والاخاء ، والثانية كفاحه من أجل الحرية والعدالة والمساواة ..

وفى قصة يعيرها الفنان جناحين ، ويسبغ عليها جو عصره ، من دون أن يبعدنا عن دنيا الحقيقة التى تعيش فيها ، يصور لنا كزنزاكيس ذلك الراهب المتقشف الصالح الداعى الى المحبة والسلام ، والممارس فى أسلوب حياته ما يدعو اليه ـ فى صورة فنية محببة الى قلوبنا جميعا ..

وأصدر كزانزاكيس عام ١٩٢٨ ملحمة شعرية ـ أو قصة فلسفية ـ فى أربع وعشرين اغنية ، وفى ثلاثة وثلاثين الف بيت ، وسماها : « أوديسيوس » ـ وهو اسم بطل الأوديسية فى ملحمة هوميروس المعروفة ، والرجل الذى تتصارع فى قلبه الرحمة والقسوة ، والدهاء والصراحة ، والشهوة والزهد ، والوداعة والكبرياء ، والعظمة والبساطة .. فاتخذ منه فناننا بطلا عصريا لرحلاته فى افريقية ـ حيث يصطدم بنماذج شتى من الناس ، منها ما يمثل فلسفة اللذة ، ومنها ما يمثل فلسفة الزهد ، ومنها ما يمثل دونكيشوت ، او يوذا او المسيح ـ والرحالة يصغى الى فلسفاتهم جميعا ، ويتأملها ويرفضها جميعا ـ على طريقة برنارد شو فى قصته : « الفتاة السوداء تبحث عن الله » وعلى طريقة راكب البحر المتجول « أوديسيوس » بطل اوديسية هوميروس ، وهو يصطدم فى اسفاره بشتى متاهات العقل والعقيدة والتقاليد .. ويصف الناقد الفرنسى ميرامبل هذه الملحمة العصرية الموضوعة فى قالب اسطورة قديمة بأنها : « تصور القلق الميتافيزيقى الناجم عن التجربة القلقة التى تسود العالم الحديث فى طموحه الى العلا ، لا عن طريق الطقوس والتقاليد ولكن بمجهود الانسان الذى يبحث عن السعادة فى معرفة الله ، فهى تعالج عودة الروح ، وعودة الخلاص ، وسط الخطر الذى تقع فيه العلويات ، وبحث الانسان عنها بلا انقطاع ـ انها اسطورة جديدة قادرة على أن تعطى العالم معنى عصريا جديدا .. ».

وكان كزنزاكيس قد صور حياته النفسية والفكرية فى « خطاب الى الجويكو » .. ثم كان آخر ما نشره مقالة نشرت بعد وفاته ـ عام ١٩٥٩ ـ بأميركا فى كتاب عنوانه : « الايمان » مع مقالات لكتاب آخرين ـ جاء بها :

« كان منبع تعاستى منذ مطلع حياتى ، هو الصراع الذى كان ينشب فى نفسى بين روحى وجسدى . ولقد دام هذا الصراع سنوات طوالا ، جربت معه شتى الوسائل كى أخلص نفسى ، وفى يأس ذهبت الى جبل « آتوس » وترهبت فى صومعة عدة أشهر ودربت جسدى على الحرمان والجوع والعطش .. وفى ذات ليلة رأيت الخيط الأحمر الذى تخلف وراء محارب يصعد الى الجبل ـ آثار اقدام حمراء خارجة من الحياة الى الروح .. وعرفت واجبى وهو أن أسير وراء هذا المحارب المكافح .. واصبحت حرا ـ ولم اغير الدنيا ، ولكنى غيرت النظرة التى أتطلع بها الى الناس .. » .